الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجيلالي بونعامة - خميس مليانة

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم التاريخ

محاضرات في مقياس:

أوروبا في العصور الوسطى

مقدمة لطلبة السنة الثانية ليسانس تاريخ في إطار التعليم عن بعد

من إعداد:

د. بودانة وليد

الموسم الجامعي: 2021- 2022م

للتواصل والاستفسار

البريد الالكتروني الخاص بالأستاذ:

Boudanawalid45@gmail.com

فهرس المحاضرات

01- المحاضرة الأولى: الحدود الزمنية للعصور الوسطى. ص 04.

02- المحاضرة الثانية: أوضاع الإمبراطورية الرومانية حتى أواخر القرن 3م. ص 10.

03- المحاضرة الثالثة: ظهور المسيحية وموقف الإمبراطورية الرومانية منها. ص13.

04- المحاضرة الرابعة: الإمبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس ثم قسطنطين. ص16.

05- المحاضرة الخامسة: غزوات الجرمان وسقوط الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية. ص25.

06- المحاضرة السادسة: نشأة البابوية وتطورها. ص34.

07- المحاضرة السابعة: الإسلام وعلاقته بأوروبا العصور الوسطى. ص39.

08- المحاضرة الثامنة: الصراع بين البابوية والقوى السياسية في الغرب. ص41.

09- مراجع للاطلاع. ص47.

المحاضرة الأولى: الحدود الزمنية للعصور الوسطى.

الجزء الأول: بداية العصور الوسطى.

درج معظم المؤرخين على تقسيم التاريخ إلى أربعة عصور مختلفة تتباين فيما بينها في مظاهر الحياة (القديم، الوسيط، الحديث، المعاصر)، ومن الطبيعي أن يمتد الانتقال من عصر إلى عصر آخر لسنوات طويلة؛ فلا يمكن أن نكون في هذه السنة مثلا في عصر معين ثم نجد أنفسنا في السنة المقبلة قد انتقلنا إلى عصر جديد بأنظمة سياسية واقتصادية واجتماعية جديدة، غير أن كثيراً من المؤرخين حاولوا تحديد تواريخ أحداث معلمية كبرى كان لها أثرها في تغيير مجرى التاريخ كفواصل بين عصر وآخر، وهذا لتيسير فهم ودراسة التاريخ. وسنحاول فيما يلي عرض لأهم النظريات التي تطرقت لبداية العصور الوسطى.

01- يرى عدد من المؤرخين أن سنة 284م تعتبر بداية للعصور الوسطى، وهي السنة التي وصل فيها الإمبراطور دقلديانوس (284- 305م) إلى سدة حكم الإمبراطورية الرومانية، ويرجع هذا الاختيار إلى عدة اعتبارات منها: أن هذا الإمبراطور قد أعاد تنظيم الإمبراطورية على أسس إدارية مختلفة عن الأنظمة السائدة سابقا، كما أنه ترك مدينة روما واختار الاستقرار بمدينة نيقوميديا بآسيا الصغرى.

كذلك نجد أن هذا الإمبراطور قد اعتنق مبادئ الملكية الشرقية وكان يرى أن الإمبراطور يفوق مستوى البشر، وأنه أقرب إلى الإله، ويجب أن يؤدي له الشعب فروض الطاعة والعبادة.

إضافة إلى ذلك ضيق الإمبراطور دقلديانوس على الديانة المسيحية واضطهد معتنقيها وقد أطلق المسيحيون على الفترة الأخيرة من حكمه مصطلح عصر الشهداء بعد أن أصدر

عدة مراسيم تأمر بهدم أماكن عبادتهم ومنعهم من الصلاة ومن تقلد الوظائف وغير ذلك من تدابير الاضطهاد.

02- يعتبر مؤرخون آخرون أن العصور الوسطى تبدأ في عصر الإمبراطور قسطنطين الكبير (305- 337م) نظراً لما أحدثه من تغييرات اجتماعية ودينية هائلة بدءاً بإصداره مرسوم ميلان الشهير سنة 313م والذي أعلن بموجبه الاعتراف بالديانة المسيحية كواحدة من الديانات المسموح باعتناقها، ما يعني تمتع المسيحيين بكافة الحقوق التي يتمتع بها غيرهم داخل الإمبراطورية، زد على ذلك أن روايات كثيرة تذكر أن قسطنطين نفسه قد دخل في دين النصرانية، رغم الخلاف بين المؤرخين حول صحة ذلك وتوقيته.

وقد قام الإمبراطور قسطنطين الكبير كذلك بتغيير العاصمة من روما إلى مدينة القسطنطينية التي قام ببنائها، إضافة إلى اصلاحاته التشريعية والعسكرية المتعددة.

03- يرى فريق آخر من المؤرخين أن سنة 330م بالذات تصلح لتحديدها كبداية للعصور الوسطى، ففي 11 ماي من هذه السنة دشن الإمبراطور قسطنطين مدينته القسطنطينية وأعلن نقل العاصمة من روما إليها مطلقا عليها اسم "روما الجديدة" غير أن المؤرخين ظلوا يطلقون عليها اسم القسطنطينية نسبة إليه.

04- يحدد بعض المؤرخين بداية العصور الوسطى بوصول جوليان المرتد للحكم سنة 361م، حيث قاد محاولة لإعادة الوثنية كدين رسمي للإمبراطورية، وقام بفتح المعابد الوثنية مجدداً وأعاد تنظيم رجال الدين الوثنيين وفق النظام المعمول به في الكنائس، وأخذ يستبعد المسيحيين من الوظائف بالجيش والإدارة ويضع في مكانهم الوثنيين.

غير أن محاولة جوليان المرتد انتهت بالفشل فبمجرد موته عادت المسيحية إلى مكانتها الطبيعية، وهوما يعني أن هذه الديانة الجديدة قد تأصل جذورها بالدولة بشكل لا يسمح لأحد بالقضاء عليها ولو كان الإمبراطور ذاته.

05- يُحدد مؤرخون آخرون سنة 376م كبداية للعصور الوسطى ففي هذه السنة بدأ القوط الغربيون اعتناق المسيحية الآريوسية على يد المبشر أوليفلاس.

وترجع أهمية هذا التاريخ إلى كون اعتناق القوط الغربيين المذهب الآريوسي وبعدهم عدة عناصر جرمانية كالوندال والبرجنديين واللومبارديين كان له بالغ الأثر في أحداث العصور الوسطى.

يُضاف إلى ما سبق أن الإمبراطور فالنز قد سمح في هذه السنة للقوط الغربيين بعبور نهر الدانوب لاستغلالهم كستار يحمي حدود الإمبراطورية من خطر قبائل الهون، وهو ما فتح المجال لبداية غزو البرابرة لأوروبا.

06- رأى بعض المؤرخين أنه يمكن اعتبار سنة 378م كنهاية للعصر القديم وبداية الوسيط ففي هذه السنة وقعت معركة أدرنة بين الإمبراطور فالنز والقوط الغربيين الذين أخذوا في اجتياح أراضي الإمبراطورية، وقد انتهت المعركة بانتصار ساحق للقوط الذين ذبحوا الإمبراطور فالنز، ويرى المؤرخ جون لامونت أن هذه المعركة قد اعتبرت ولوقت طويل كإحدى المعارك الحاسمة في التاريخ.

07- يتخذ عدد من المؤرخين سنة 395م كبداية العصور الوسطى ذلك أن الإمبراطور ثيودسيوس قسم في ختام حكمه الإمبراطورية إلى قسمين منفصلين عن بعضهما؛ قسم شرقي عاصمته القسطنطينية أعطاه لابنه أركاديوس، وقسم غربي عاصمته روما أعطاه لابنه الآخر هونوريوس.

إن هذا التقسيم يعني ميلاد دولة في شرق أوروبا عرفت بالدولة البيزنطية استمرت لأكثر من ألف عام بعد ذلك، وقيام أخرى لم تلبث أن سقطت في أيدي القبائل الجرمانية.

08- في سنة 410م زحف القوط الغربيون بقيادة ألاريك إلى إيطاليا ونهبوا العاصمة روما، وهو ما اعتبره عدد من المؤرخين نهاية للعصور القديمة وبداية لعصور جديدة.

09- يرى كثير من المؤرخين أن سنة 476م تعد سنة فاصلة بين العصور القديمة والوسطى ففيها سقطت روما مرة أخرى في يد العناصر الجرمانية – بقيادة زعيم يدعى أودواكر هذه المرة- كما قاموا باحتلال مدينة رافنا وعزلوا الإمبراطور روميلوس أوغسطيس وبذلك تم القضاء على الإمبراطورية الرومانية الغربية.

10- يعتبر البعض أن عصر الإمبراطور جستنيان الأول (527- 565م) يفصل بين العصور القديمة والوسطى ذلك أنه أقام تشريعات ظلت قائمة فترة طويلة بعده، إضافة إلى إطلاقه حملات عسكرية تهدف إلى استرداد أملاك الإمبراطورية في شمال إفريقيا وإيطاليا وإسبانيا، وقد كانت محاولته هذه آخر محاولة يسترجع فيها إمبراطور روماني هذه الأراضي، خاصة وأن خلفاءه قد فشلوا في المحافظة على هذه الأراضي.

11- يعتبر عدد من المؤرخين أن بداية العصور الوسطى كانت مع تتويج شارلمان إمبراطوراً على الغرب، أي عندما تم إحياء الإمبراطورية القديمة، ويتحجج أصحاب هذا الرأي بأن شارلمان كان آخر الباطرة الرومان بالمعنى الروماني القديم، وأن فشله في ضم الجزء الشرقي لأملاكه وإحياء الإمبراطورية القديمة من جديد هو خير دليل على تغير ظروف العالم الأوروبي وانتقاله لعصر جديد.

المحاضرة الأولى: الحدود الزمنية للعصور الوسطى.

الجزء الثاني: نهاية العصور الوسطى.

تعددت النظريات التي تتناول نهاية العصور الوسطى ويمكن أن نلخص أهمها فيما يلي:

01- النظرية الأولى: يرى بعض المؤرخين أن عصر النهضة يفصل بين التاريخ الوسيط والحديث، لما اشتمل عليه من تطورات واسعة في كافة المجالات إذ تخلى الكُتاب عن اللاتينية –التي كانت لغة الكتابة في العصور الوسطى وظلت حكراً على فئة قليلة خلالها– وبدأوا يكتبون باللغات المحلية، ويعتبر دانتي أليجيري (1256– 1321م) أبرز من تركوا الكتابة باللاتينية، حيث كانت مؤلفاته –وأبرزها الكوميديا الإلهية– باللغة الإيطالية، ثم تبعه آخرون كتبوا بالفرنسية والإنجليزية، ولا شك أن هذا التحول في لغة الكتابة مكن عامة الشعب من الاطلاع على ما يكتبه هؤلاء الأدباء.

كما حاول رجال الفن خلال القرن الخامس عشر التخلص من تقاليد العصور الوسطى وتقديم فن مختلف عنها يعبر عن مختلف المواضيع الإنسانية بدل حصره في التعبير عما هو موجود في الإنجيل والكتب المقدسة.

02- النظرية الثانية: يعتبر البعض أن الخروج عن الكنيسة وأفكارها التي ظلت مسيطرة على مجتمع العصور الوسطى يعد نقلة من مرحلة إلى أخرى، ويعتبر هؤلاء أن حركة الإصلاح الدين التي بدأت منذ القرن الرابع عشر تعد إيذانا بنهاية العصور الوسطى، وأبرز من مثل هذه الحركة في بداياتها يوحنا ويكلف (1330– 1384م) ويوحنا هس (1373– 1415م)، وقد مهدت حركتهما لحركة الإصلاح البروتستانتي التي تزعمها مارتن لوثر (1483– 1546م) التي كان من نتائجها اضمحلال الكنيسة اللاتينية وزوال هيبتها.

03- النظرية الثالثة: يرى البعض أن سنة 1453 تعد تاريخا مناسبا للفصل بين العصور الوسطى والحديثة فقد شهدت هذه السنة حدثين هامين كان لهما أثر بالغ على

أوروبا في مختلف المجالات، ففي شرق أوروبا سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين، أما في غربها فقد انتهت حرب المائة عام بين فرنسا وانجلترا.

04- النظرية الرابعة: كان لحركة الكشوفات الجغرافية أثرها البالغ على أوروبا والعالم أجمع، لذلك يحدد بعض المؤرخين بداية العصر الحديث بها، حيث اكتشف الملاح البرتغالي بارثليميو دياز (1450- 1500) طريق رأس الرجاء الصالح، ثم قام فاسكو دي جاما (1469- 1524م) بأول رحلة بحرية إلى الهند عبر هذا الطريق بين سنتي 1497-1498.

وفي نفس المجال برز كريستوف كولومبوس (1451- 1506م) الذي اكتشف أمريكا سنة 1492م، وهي السنة التي يعتبرها الكثيرون نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصر الحديث، خاصة وأنها قد عرفت حدثا آخر لا يقل أهمية وهو سقوط مملكة غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس.

المحاضرة الثانية: أوضاع الإمبراطورية الرومانية حتى أواخر القرن 3م.

عرفت روما منذ تأسيسها ثلاثة أنظمة حكم متباينة امتد أولها من 753 ق م إلى سنة 509م وعرف بالنظام الملكي، وقد توسعت فيه روما وزاد نفوذها، أما النظام الثاني فهو النظام الجمهوري الذي امتد بين سنتي 509- 27 ق م وتميز بتوسع روما خارجيا وتطور نظم الحكم الرومانية، ليأتي بعدها عهد النظام الإمبراطوري الذي امتد من سنة 27 ق م إلى غاية سقوط روما سنة 476م. وسنسعى في هذه المحاضرة إلى التعرف على الأوضاع في العهد الإمبراطوري من بدايته إلى غاية نهاية القرن الثالث ميلادي.

01- الأوضاع السياسية:

ينقسم العهد الإمبراطوري إلى قسمين عُرف الأول بالإمبراطورية الدستورية يمتد بين سنتي 27ق م و284م، فيما عُرف القسم الثاني بالنظام الإمبراطوري المُطلق والذي يمتد من بداية حكم دقلديانوس سنة 284م إلى غاية سقوط روما عام 476م.

بعد انتصار أوكتافيوس في معركة أكتيوم سنة 31 ق م على منافسه ماركوس أنطونيوس وحليفته كليوباترا السابعة، خلت له الساحة السياسية بروما ليصبح حاكما وحيدا لها، فعمل على تأسيس نظام جديد وأطلق دستوراً احتفظ فيه بنظم الجمهورية القديمة، غير أنه أنشأ منصبا جديداً هو الحاكم الأعلى يلقب من يتولاه بالإمبراطور.

لقد حاول أوكتافيوس الجمع بين الزعامة العسكرية ورغبة المواطنين الرومان في الحفاظ على مكانتهم الممتازة، فنبذ الحكم المطلق لكنه ركز معظم السلطات في يده، ورغم أن النظام الجديد قام على أساس السلطة المزدوجة بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ إلا أن صلاحيات هذا الأخير التشريعية والقضائية والإدارية قد تقلصت بشكل واضح عما كانت عليه في العهد الجمهوري.

لقد عانى النظام الإمبراطوري في فترته الأولى من مشكلة عدم وجود قانون وراثي ثابت هو ما أدى إلى اختلال النظام بحيث تحكم الجيش في تعيين الأباطرة بعد أن كان خادما لهم.

ومع عهد دقلديانوس انتقلت الإمبراطورية إلى نظام الحكم المطلق للإمبراطور فقد تركزت كل السلطات بيده وصار يتدخل في جميع شؤون الدولة، وكانت له قيادة الجيش، كما أضفى هالة دينية على شخص الإمبراطور.

02- الأوضاع العسكرية:

ازدادت سلطة الجيش في القرن الثالث الميلادي حتى أنه صار يتحكم في عزل الأباطرة وتعيين غيرهم، بل إن معظم الفرق العسكرية في الولايات صارت تختار قادتها بنفسها دون مراعاة لرغبة الإمبراطور، ولعل خير مثال يوضح ما وصل إليه الجيش الروماني من نفوذ داخل الدولة تلك النصيحة التي قدمها الإمبراطور كاراكلا (211- 235م) إلى أبنائه حين قال "أجزلوا العطاء للجند، ولا تهتموا بالآخرين".

لقد تجلى تدخل الجيش في شؤون الإمبراطورية بشكل فاضح لدرجة أنه خلال الفترة الممتدة ما بين 235- 285م تعرض خمس وعشرون إمبراطوراً للقتل، وفي المقابل زادت الأخطار الخارجية على الإمبراطورية فمن ناحية زاد ضغط الجرمان خاصة على ناحيتي الراين والدانوب، ومن ناحية أخرى ازداد الخطر الفارسي على الجبهات الآسيوية.

شرع دقلديانوس بعد وصوله إلى الحكم في إجراء إصلاحات عسكرية عميقة فأعاد تنظيم الجيش وأنشأ فرقا جديدة ورفع أعداد الجنود، وفي عهده تم القضاء على الحركات الانفصالية واسترجع الرومان ولاية ما بين النهرين كاملة من الفرس.

03- الأوضاع الاقتصادية

عرف الاقتصاد انتعاشا كبيراً في القرنين الأول والثاني يرجع سببه إلى قيام أسواق جديدة في الغرب، ولِما ساد البلاد من أمن واستقرار مكنا من زيادة حركة التجارة وفتح طرق تجارية جديدة، غير أن هذه الأوضاع تغيرت في القرن الثالث خاصة في النصف الثاني منه حيث سادت الفوضى داخل الإمبراطورية وكثرت الحروب الأهلية التي تسببت في فساد المحاصيل وجعلت الطرق التجارية غير مأمونة.

يضاف إلى ما سبق تزايد نفقات الدولة بتزايد أعداد العساكر في القرن الثالث الميلادي وسيطرة الجيش على السلطة، فقد كان جانب كبير من أموال الإمبراطورية يذهب لخدمة فئة القادة العسكريين بدل توفير الخدمات العامة للسكان.

من ناحية أخرى فقدت النقود قيمتها وبدأ التعامل بها يختفي تدريجيا حتى صارت المرتبات والأجور تدفع بالغلال والحبوب بدل النقود، كما توقف النشاط التجاري نظرا للزيادات الفاحشة في الضرائب على السلع التجارية.

وقد حاول دقلديانوس في فترة حكمه علاج هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة التي كانت الإمبراطورية تعاني منها، ورغم فشله في هذا الجانب من إصلاحاته إلا أنه نجح في حماية الفقراء من جشع المستغلين.

04- الأوضاع الاجتماعية والدينية:

اشتد التنازع بين طبقات المجتمع في القرن الثالث الميلادي بالرغم من صدور قانون منح الجنسية لجميع سكان الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور كراكلا سنة 1212م، وقد زاد هذا التنازع بين الطبقات بعد انتشار المسيحية بين عامة الشعب بسبب ما لقيه أتباع الديانة الجديدة من اضطهاد بلغ أشده في عهد الإمبراطور دقلديانوس.

المحاضرة الثالثة: ظهور المسيحية وموقف الإمبراطورية الرومانية منها.

يرجع الفضل في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى داخل الإمبراطورية الرومانية ووضع فلسفة هذه الديانة فيما يتعلق بالأخلاق والأخرويات كالموت والبعث والحساب والخلود إلى القديس بولس، لتبدأ بذلك المسيحية في الانتشار في أوساط المجتمعات الرومانية، خاصة وأن هذه الديانة قد أشبعت الفراغ الروحي الذي كان يعانيه سكان الإمبراطورية الرومانية.

لقد تظافرت عدة عوامل لتساهم في الانتشار الواسع للمسيحية في أنحاء الإمبراطورية الرومانية كان أبرزها اعتماد المبشرين على اللغة اليونانية التي كانت منتشرة في الأوساط الشعبية بالجزء الشرقي من الإمبراطورية، إضافة إلى صمود المسيحين أمام الاضطهاد الذي عانوه من قبل السلطة، وهو ما نال إعجاب الناس وأثار لديهم تساؤلات حول أهمية هذه العقيدة وما يمكن أن يجنيه الإنسان إزاء صموده، ليُفتح الباب واسعا أمام الحشود الكبيرة لاعتناق المسيحية.

لم تكن المسيحية الديانة الوحيدة التي بدأت في الانتشار داخل الإمبراطورية إنما رافقتها عدة ديانات أخرى خاصة وأن الإمبراطورية قد تركت حرية العقيدة للمواطن الروماني طالما أنه يعترف بعبادة الإمبراطور وعقيدته لا تهدد سلامة الإمبراطورية، غير أن السلطات الرومانية سرعان ما تفطنت للخطر الذي تشكله المسيحية، ذلك أن معتنقيها رفضوا عبادة الإمبراطور وكانوا يجتمعون سرا لممارسة طقوسهم الدينية، كما أن الانتشار الواسع للمسيحية في أوساط الطبقات المادحة جعل السلطات الرومانية تنظر إليها وكأنها ثورة اجتماعية تهدف إلى تغيير النظم القائمة، لتبدأ الإمبراطورية حملة الاضطهاد ضد أتباع هذه الديانة لمدة قرنين من الزمن قبل أن تعترف بها كديانة رسمية، ويمكن تلخيص أهم الاضطهادات التي تعرضت لها الديانة المسيحية من قبل الأباطرة الرومانيين فيما يلي:

- اضطهاد الإمبراطور نيرون الذي اتهم المسيحيين بحرق بعض شوارع روما سنة 64م وقام بإعدام القديسين بطرس وبولس.
- اضطهاد الإمبراطور دومتيانوس الذي يعد ثاني إمبراطور يتبع سياسة الاضطهاد ضد المسيحيين خاصة في مناطق آسيا الصغرى، غير أن البعض يشكك في وقوع هذا الاضطهاد.
- الاضطهاد الذي وقع سنة 106م في عهد الإمبراطور تراجان حيث أمر بإبادة النصارى وحرق كتبهم.
- مرسوم الإمبراطور فاليريان الصادر سنة 257م والذي يأمر بمصادرة أملاك الكنيسة ونفي رجالها وإعدام بعضهم.
- اضطهادات الإمبراطور دقلديانوس الذي أصدر عدة مراسيم سنتي 303– 304م تقضي بمنع صلاة المسيحيين وتأمر بهدم كنائسهم وحرق كتبهم وحبس القساوسة المسيحيين وطردهم من الوظائف الحكومية وتعذيب وقتل كل من تثبت صلته بهذه الديانة، وقد أطلق المسيحيون على الفترة الأخيرة من حكم دقلديانوس اسم "عصر الشهداء" نظراً لتطرفه في محاربة المسيحية، كما أن الكنيسة القبطية لا تزال تؤرخ الأحداث بسنة وصوله إلى الحكم كتذكير بمعاناة المسيحيين في عهده حيث يبدأ التقويم القبطي يوم 29 أوت 284م.

مع وصول الإمبراطور قسطنطين الأول تغيرت السياسة الدينية للإمبراطورية وبدأ هذا الإمبراطور في دعم الكنيسة والسماح بانتشارها، ولعل أجّل ما قدمه للمسيحية هو مرسوم ميلان الصادر سنة 313م والذي يمنح المسيحيين كامل الحرية لممارسة طقوسهم ويساوي بين ديانتهم وباقي الديانات بالإمبراطورية.

عرفت المسيحية آخر محاولات القضاء عليها في عهد الإمبراطور جوليان (361– 363م) الذي ارتد عن المسيحية وأعاد اعتناق الوثنية فصار يعرف ب "جوليان المرتد"،

واتخذ عدة اجراءات في صالح الوثنية حيث أعاد فتح معابدها، وعين الوثنيين في المناصب الهامة بالدولة وأمر برفع الشعارات الوثنية على أسلحة الجنود بدل الشعارات المسيحية، غير أن كل هذه باءت بالفشل إذ سرعان ما عادت المسيحية إلى مكانتها بعد وفاة جوليان المرتد واستمرت في الانتشار حتى صارت الدين الرسمي للدولة.

المحاضرة الرابعة: الإمبراطورية الرومانية في عهد دقلديانوس ثم قسطنطين.

أولا: الإمبراطورية في عهد دقلديانوس (284- 305م):

ولد دقلديانوس (اسمه الأصلي ديوكليس) سنة 245م في إقليم دلماشيا (تقع في كرواتيا حاليا) وقد تدرج في الوظائف الحكومية فكان في البداية كاتبا، ثم ترقى إلى أن وصل إلى مرتبة قنصل بفضل جهوده وبراعته، ثم تولى قيادة حرس القصر الإمبراطوري وهي من الوظائف الحساسة داخل الإمبراطورية، ليتولى منصب الإمبراطور بعد وفاة خلفه مكسيميان سنة 284م.

شرع دقلديانوس منذ بداية توليه الحكم في إجراء إصلاحات عميقة سعى بها إلى النهوض بالإمبراطورية من جديد وقد وجه جهوده نحو تحقيق ثلاثة أهداف كبرى هي:

01- تقوية جهاز الإمبراطورية.
02- إعادة تنظيم الجهاز الإداري.
03- تجديد الجيش وتقويته.

ولتحقيق هذه الأهداف بدأ دقلديانوس في تحقيق الأمن وفرض النظام داخل الولايات الرومانية فأخضع الثورات الداخلية، وصد البرابرة على الحدود، كما هاجم الفرس سنة 297م واسترد منهم ولاية ما بين النهرين.

الإصلاحات الإدارية:

أعاد دقلديانوس تنظيم الجهاز الإداري فقضى على التفرقة بين الولايات، واتخذ من مدينة نيقوميديا في آسيا الصغرى عاصمة جديدة للإمبراطورية، ونقل عاصمة إيطاليا من روما إلى ميلان لاعتبارات عسكرية.

كذلك قام دقلديانوس بتقسيم الإمبراطورية إلى أربعة أقسام؛ اثنان يحكمهما قائدان برتبة أغسطس، والباقيان يحكمهما قائدان أقل درجة ويلقبان ب "قيصر" ويخلفان الأولين في حالة الوفاة، وكانت المراسيم الإمبراطورية تصدر باسم الأربعة، ورغم أن دقلديانوس كان جزءاً من هذا الحكم الرباعي إلا أنه ظل ممسكا بزمام الأمور فقد احتفظ بلقب الإمبراطور وكان القائد العام للجيش.

بعد ذلك قام دقلديانوس بتقسيم الوحدات الأربع السابقة إلى سبعة عشر وحدة أصغر يرأس كل وحدة نائب عن الحاكم العام، وتشمل كل وحدة عدداً من الولايات بلغ عددها مائة ولاية وولاية، ولكل ولاية ثلاث إدارات هامة تشرف على العدالة، المالية والأملاك الخاصة بالأباطرة. وبهذا صار حكام الولايات مسؤولين أمام نواب الحاكم العام وهؤلاء مسؤولون أمام الحاكم العام للإقليم وهذا الأخير مسؤول أمام الإمبراطور الذي يملك صلاحية التعيين والعزل.

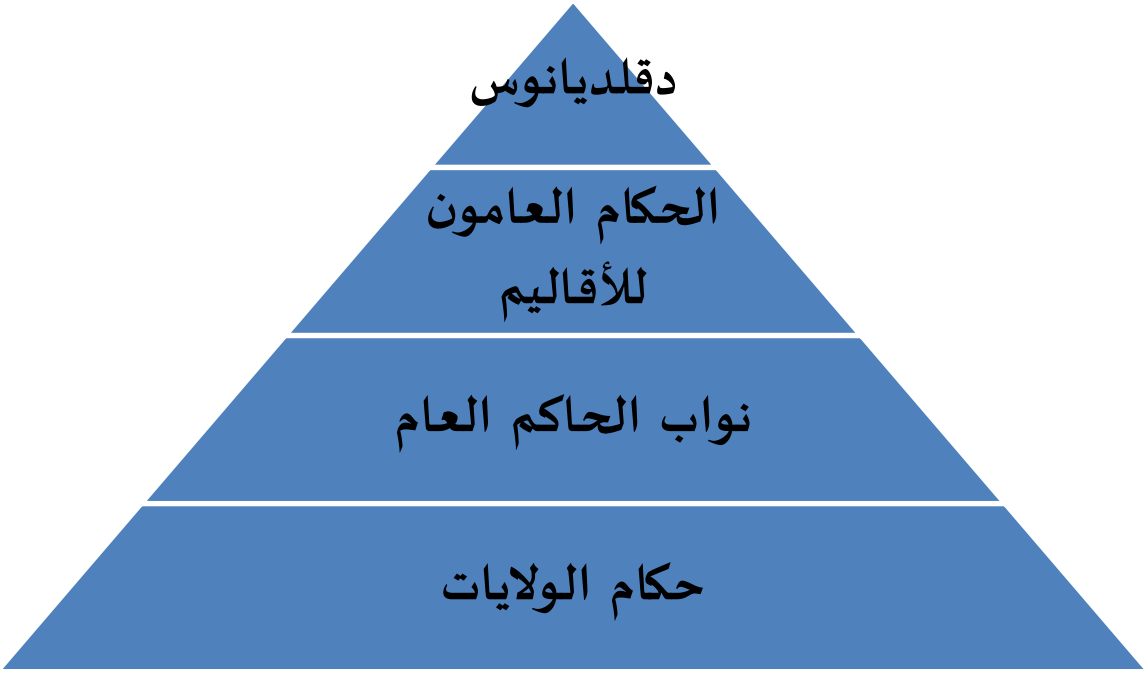

الاصلاحات العسكرية:

اهتم دقلديانوس اهتماما كبيراً بالجيش ويمكن اختصار أهم اصلاحاته في الجانب العسكري فيما يلي:

– رفع من أعداد الجنود وفتح أمامهم أبواب التدرج في مختلف الرتب.

– فرض إلزامية الخدمة العسكرية.

– اعتمد على الجند الذين ينتمون لأقل شعوب الإمبراطورية تحضرا، خاصة منهم الجرمان، ذلك أنه كلما قل نصي الجندي من الحضارة كلما زات أهميته ومكانته.

– أنشأ أيضا فرقة متنقلة غير مرتبطة بجهة معينة، إنما تتنقل حسب الحاجة ومشيئة الإمبراطور.

الاصلاحات الاقتصادية:

قام دقلديانوس بعمر حصر واسعة للأراض الزراعية بهدف تحديد الضرائب بصورة عادلة، كما قام سنة 296م بسك عملة نقدية سليمة وطرحها في السوق لتحل محل العملات القديمة المزيفة، كما أصدر سنة 301م مرسوما يحدد أثمان السلع.

ومن أجل الحد من هجرة المزارعين لأراضيهم أصدر دقلديانوس مرسوما يجبر فيه الفلاحين وباقي أصحاب المهن على مبدأ الوراثة بحيث لا يمكن لابن المزارع أن يشتغل مهنة أخرى غير مهنة أبيه.

غير أن أهم عيب اقترن بفترة دقلديانوس هو تزايد الضرائب بشكل فادح نظراً لارتفاع التكاليف الحكومية، حيث وقع الجزء الأكبر من هذه الضرائب على عاتق الطبقات البسيطة فيحين استفادت الطبقات العليا من اعفاءات مالية.

اعتزل دقلديانوس الحكم سنة 305م بعد أن أصيب بعلل الشيخوخة المبكرة، وقضى أعوامه الأخيرة معتكفا عن الناس، وفي نفس الوقت اعتزل مكسيميان الحكم وفقا لاتفاق سابق مع رفيقه.

ثانيا: الإمبراطورية في عهد قسطنطين الكبير (306- 337م):

ولد قسطنطين الإبن الأكبر لقسطنطيوس من زوجته هيلانة، ولد في نيش (تقع في صربيا حاليا) حوالي سنة 280م، ونشأ في حاشية الإمبراطور دقلديانوس في نيقوميدية والتحق بالجيش في سن الخامسة عشر وترقى فيه، ثم نادى به الجيش إمبراطورا بعد وفاة والده الذي كان يشغل رتبة قيصر في بريطانيا وغالة، لتندلع بذلك حرب أهلية طاحنة بين ثلاث زعماء تنازعوا السلطة وهم: ليكينيوس في الشرق، وماكسينتيوس في إيطاليا، وقسطنطين في بريطانيا وغالة.

تمكن قسطنطين من القضاء على ماكسينتيوس سنة 312م ليسيطر على غرب الإمبراطورية ويتقاسم الحكم مع ليكينيوس إمبراطور الشرق، وقد حلت فترة من السلم بينهما غير أنها لم تدم طويلا إذ تجددت الحرب سنة 316م وانتهت بانتصار قسطنطين النهائي سنة 324م وانفراده بحكم الإمبراطورية، ومن أجل التخلص من النزاعات على منصب الإمبراطور أقر قسطنطين مبدأ الحكم الوراثي بدل الكفاءة، حيث أصبح المنصب الإمبراطوري وراثيا في أسرته.

عمل قسطنطين على استكمال الإصلاحات التي بدأها دقلديانوس فاستحدث عدداً من الوظائف الإدارية بغرض تيسير أعمال الإمبراطورية، وعمل على انقاص أعداد الأفراد بالفرق العسكرية الجوالة، في حين استمر في فتح الباب أمام الجرمان للانخراط بالجيش كجنود نظاميين.

أما بخصوص الضرائب فقد زاد عددها في زمن قسطنطين وأُضيفت ضرائب نقدية إلى جانب تلك العينية التي كانت زمن دقلديانوس، وجعل الحرف وراثية كي لا يفر أصحابها من قسوة الضرائب، كما شدد التشريعات لمنع الفلاحين من ترك أراضيهم بسبب كثرة الضرائب.

قسطنطين والمسيحية:

سبق وأن أشرنا في المحاضرة السابقة إلى أن المسيحية قد انتعشت بوصول قسطنطين إلى الحكم وإصداره مرسوم ميلان سنة 313م، والواقع أن مرسوما آخر قد سبقه وهو مرسوم جالريوس (305– 306م) غير أنه لم يطبق بسبب قصر مدة حكمه، أما عن مرسوم ميلان فإن قسطنطين لم يُصدره لوحده إنما جاء بالاشتراك مع الأغسطس ليسينوس، وقد قضى بحرية اختيار الديانة ورد الحقوق الدينية للمسيحيين وأن يُعاد للكنيسة ما صودر منها من أراض وأملاك.

إن اعتراف قسطنطين بالمسيحية يطرح أمامنا قضية مهمة أثارت خلافا كبيراً بين المؤرخين، ويمكن صياغة هذه القضية في السؤال الآتي:

هل كان اصدار قسطنطين لمرسوم ميلان عن إيمان منه بالمسيحية، أم كان للأهداف السياسية شأن في ذلك؟

الواقع أن قضية اعتناق قسطنطين المسيحية قد أثارت الكثير من الجدل بين المؤرخين حيث يرى بعضهم أن قسطنين قد أعلن ميلان بدافع إيماني سليم، ودليلهم في ذلك ما رواه مؤرخ الكنيسة المعاصر لقسطنطين "يوسابيوس القيصر "حين ذكر أنه – أي قسطنطين– قد انتقل إلى المسيحية منذ سنة 312م حينما زحف بجيشه لمواجهة ماكسنتيوس حيث رأى منتصف النهار صليبا من نور في السماء يحمل عبارة "انتصر بهذا"، ولما نام بالليل رأى في منامه السيد المسيح يحمل الصليب نفسه ويأمره باتخاذه شعاراً له ولجنوده أثناء حروبه مع أعدائه، وهو ما هز مشاعر قسطنطين الذي تمكن من الانتصار على خصمه ماكسنتيوس ودخول مدينة روما حيث عرف أن انتصاره كان بفضل تأييد إله المسيحيين له.

يُضاف إلى ذلك أن عدد المسيحيين غُداة إصدار مرسوم ميلان لم يتجاوز عُشُر سكان الإمبراطورية وهو ما يؤيد أن قسطنطين اصدره بدافع إيماني لا سياسي.

غير أن مؤرخين آخرين يرون أن الدوافع السياسية كانت وراء عطف قسطنطين على المسيحيين ذلك أن هذه الديانة كانت متركزة في شرق الإمبراطورية في الوقت الذي دان له غربها ولا يستبعد أن تكون إجراءاته تجاه المسيحية بغرض فرض سيادته التامة على كامل الإمبراطورية، ولا بد أن قسطنطين كان يدرك جيداً مدى أثر رجال الدين في نفوس الرعية ودعوتهم لتعضيد الحاكم أو التمرد عليه، ومن ثمة فإنه أراد أن يكسب جماعة لم تنل عطف الدولة سابقا.

بناء القسطنطينية:

من أهم الأعمال التي خلدت فترة قسطنطين تأسيسه لمدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للإمبراطورية، حيث أمر في نوفمبر 324م بالشروع في بنائها بالشروع في بنائها محل بلدة بيزنطة القديمة على ضفاف مضيق البوسفور.

والواقع أن ميزات عديدة فرضت على قسطنطين اختيار هذا الموقع بدلا من غيره ذلك أن القسطنطينية بنيت على خليج البوسفور في شكل مثلث متساوي الأضلاع بقمة مفلطحة تمتد شرقا داخل مضيق البوسفور، أما جنوبا فتقع القسطنطينية على بحر مرمرة، في حين تقع قاعدة المثلث من ناحية الغرب حيث تواجه أوروبا وهذه الناحية هي المنفذ البري الوحيد للمدينة، ومن جهة الشمال يخرج من البوسفور خليج صغير يمتد غربا نحو سبعة أميال مشكلا ميناء طبيعيا مميزاً للمدينة تسهل فيه عملية الشحن والتفريغ حيث يندر حدوث المد والجزر، وقد عُرف هذا الميناء باسم **القرن الذهبي**، كونه يشبه القرن في شكله أما لفظ الذهبي فهو تعبير عن الثورات المتدفقة نحوه.

لا يزيد مدخل ميناء القسطنطينية عن 500 ياردة (حوالي 0.45 كلم) وهو ما يسهل حمايته، وقد كانت عليه سلسلة تمنع السفن من الدخول إليه إلا بإذن، أما عن القسطنطينية

فبشكل عام يوفر لها الماء حماية طبيعية كونه يحيط بها من ثلاث جهات، كما أن مضيقي البوسفور والدردنيل يزيدان من مناعة المدينة حيث يسهل غلقهما في وجه أي أسطول معاد.

إن موقع القسطنطينية جعل منها مركزاً تجاريا هاما حيث صارت ملتقى الطرق التجارية التي تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط، وأوروبا بآسيا.

خريطة مدينة القسطنطينية:

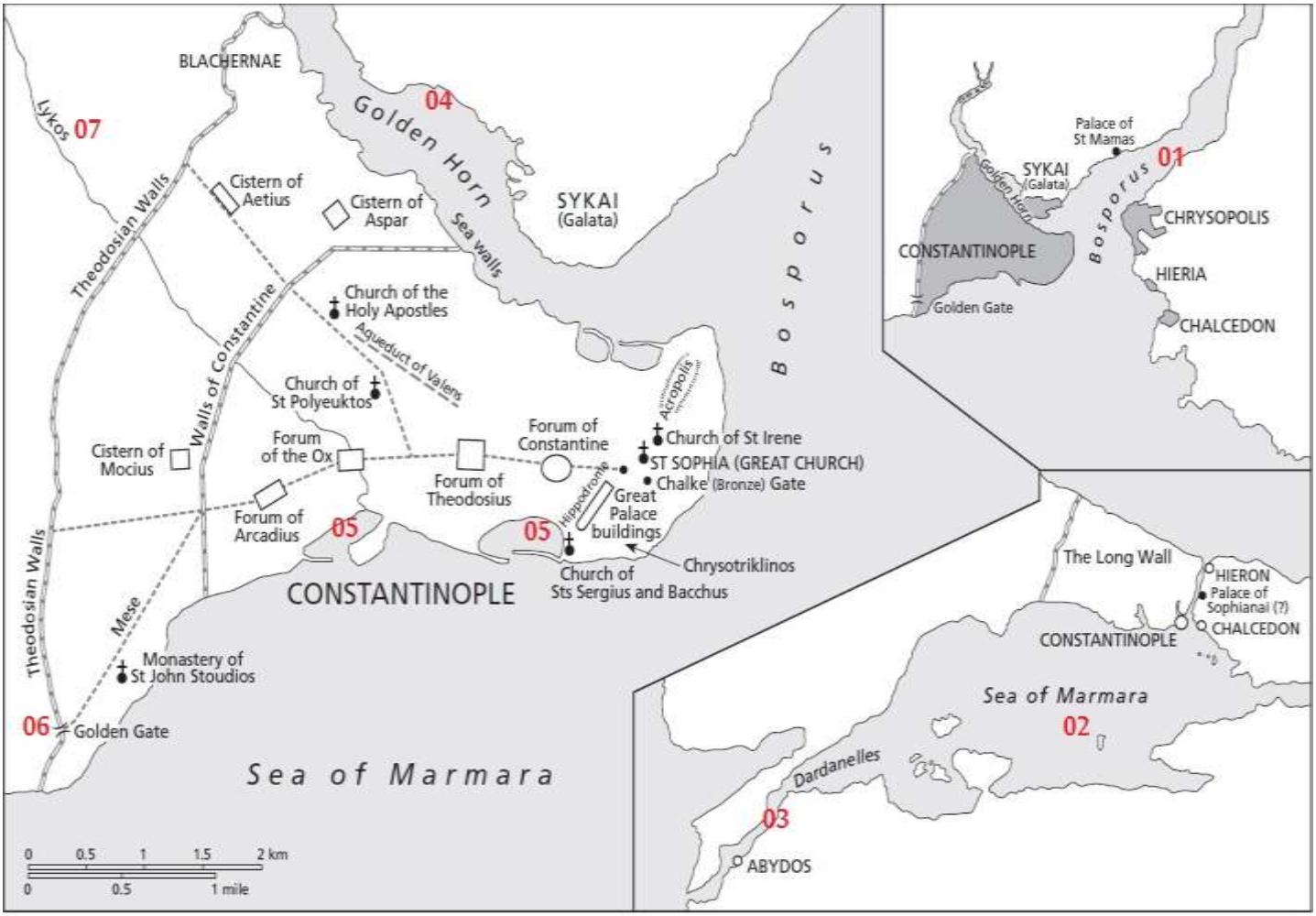

01/ مضيق البوسفور.

02/ بحر مرمرة.

03/ مضيق الدردنيل.

04/ ميناء القسطنطينية "القرن الذهبي".

05/ ميناءان صغيران جنوب المدينة.

06/ البوابة الذهبية: أشهر بوابات القسطنطينية.

07/ نهر ليكوس الذي يزود المدينة بالماء العذب.

المحاضرة الخامسة: غزوات الجرمان وسقوط الجناح الغربي من الإمبراطورية الرومانية.

كان للمستوى الحضاري الذي بلغه الرومان تأثير واضح على طبيعة نظرتهم إلى الشعوب الأخرى، بحيث كانوا يصفون مختلف الشعوب التي تجاورهم **بالبرابرة** كونهم أقل منهم تحضراً، وهنا تنبغي الإشارة إلى أن لفظ البرابرة في هذا السياق لا تعني الهمجية أو الوحشية إنما هي مرحلة من التنظيم القبلي الذي لم يرق بعد إلى مرحلة الاستقرار والمدنية وإقامة دول ذات حدود ثابتة، ويعتمد أساسا على رابطة الدم بدل ربطة المواطنة بين أفراده.

وقد أطلقت هذه الكلمة على الشعوب المحيطة بالرومان كالقبائل الرعوية الأسيوية مثل الهون والبلغار والآفار والمجريين والمغول، وعلى الغرب من هذه الشعوب كان السلاف والجرمان والكلتيين وقد شملتهم كذلك تسمية البربر التي أطلقت أيضا على الفرس في شرق الإمبراطورية والعرب في جنوبها الشرقي وعلى سكان شمال إفريقيا.

لقد عرف الرومان تدفقا مبكراً للشعوب المتبربرة متمثلا في الكلتيين الذين انتقلوا في القرن 05 ق م، إلى داخل أوروبا واستقروا قرب نهر الراين وفي فرنسا التي صارت تعرف باسمهم "غاليا" ورحل قسم منهم إلى إسبانيا، إيرلندا وبريطانيا وشكلوا اتحادات فيما بينهم، وفي القرن الأول قبل الميلاد تقلصت المساحات التي سيطر عليها الكلتيون حيث طردهم الجرمان من شرق الراين، وغزا الرومان غاليا وبريطانيا، فلم يبق للكلتيين كيان مستقل سوى إيرلندا.

01- الجرمان:

أطلق الرومان اسم الجرمان على الشعوب التي وفدت إلى حدود الراين والدانوب والواقع أن هذا الاسم هو لقبيلة واحدة منها عممه الرومان على باقي القبائل.

يعود أصل هذه الشعوب إلى بحر البلطيق وقد بدأوا يتحركون من موطنهم الأصلي نحو الجنوب حتى وصلوا إلى نهر الراين، ثم انتقل قسم كبير منهم إلى حوض نهر الدانوب. وقبل الحديث عن توغلاتهم داخل الإمبراطورية الرومانية يجدر بنا أن نتعرض للأوضاع العامة لهذه القبائل.

– بالنسبة لبنائهم الاجتماعي انقسم الجرمان إلى ثلاث طبقات هي:

* النبلاء: وهم المقاتلون في الحروب ولا يمتهنون في وقت السلم شيئا، حيث يقضون أوقاتهم في الصيد والراحة.

* العبيد: اقتصر عملهم على خدمة الأرض وزراعتها، حيث يدفع لسيده كل موسم قدراً معينا من الحبوب والماشية والملابس.

* الأحرار: لا يختلف وضعهم كثيراً عن العبيد، سوى أنهم أرفع منهم درجة.

–كانت حياة الجرمان بدائية إلى حد بعيد فقد كان رجالهم يطلقون لحاهم وشعورهم، ويلبسون جلود الحيوانات، أما طعامهم فكان يقوم على بعض المنتجات الزراعية وما يتم صيده من الحيوانات، واعتمدوا في منازلهم على الطين وأغصان الأشجار.

– رغم أن الجرمان قد عرفوا النقود الرومانية وأواني الذهب والفضة، غير أن معاملاتهم ومقايضاتهم كانت تعتمد على الخيل والماشية وغير من الحيوانات النافعة.

– مثلت الأسرة الوحدة الأساسية في النظام الجرماني، وكان للأب السلطة المطلقة فيها حتى أنه كان يملك حق سلب الحياة من أفراد أسرته، كما كان جميع أفراد الأسرة مسؤولين عما قد يقترفه أحد أفرادها من جرم.

– كانت ديانتهم عبارة عن خليط من الأساطير وعبادة قوى الطبيعة كالكواكب والنجوم، وكان إلههم الرئيسي الذي يعبدونه هو عطارد، ويقدمون له في بعض أيام السنة القرابين سواء من الحيوانات أو حتى الضحايا البشرية.

– جمع الجرمان بين القوة والشجاعة، وعرفوا باحترامهم للعهود، والترابط بين الأسرة الواحدة، واشتهر عنهم كرمهم المطلق ومراعاتهم الشديدة لرباط الزوجية المقدس.

– انقسم الجرمان إلى مجموعتين كبيرتين هما:

* الجرمان الغربيون: مثل الفرنجة، والسكسون والقوط الغربيين والسكسون والانجليز.

*الجرمان الشرقيون: منهم القوط الشرقيون والوندال والبرجنديون واللومبارديون.

02– غزوات الجرمان لأراضي الإمبراطورية:

لم يحاول الجرمان بعد أن استقروا قرب حدود الإمبراطورية الرومانية الدخول في أراضيها إذ ساد جو من السلام بين الطرفين إلى غاية القرن الثاني الميلادي حيث تعرضوا لضغط القبائل الآسيوية من الشرق، كما أن أعدادهم ارتفعت بشكل ملحوظ مع سوء أحوالهم الاقتصادية وهو ما جعلهم يتطلعون لدخول أراضي الإمبراطورية.

لم ينقطع تهديد القبائل الجرمانية رغم تحالف بعضها مع الرومان في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (161– 180م)، حيث تقدم القوط في عهد الإمبراطور كاراكلا (211– 217م) وهاجموا إقليم داشيا وظلوا يعيثون في البلقان فساداً لمدة فاقت الخمسين سنة حتى هزمهم الإمبراطور كلوديوس الثاني (268– 270) سنة 269م.

وبالرغم من تفوق الرومان في هذه المرحلة إلا أنهم آثروا مسالمة القوط فسلمهم الإمبراطور أورليان (270– 275م) إقليم داشيا وسحب منه الجيوش والموظفين الرومان، وهو ما مهد لقيام أول مملكة جرمانية داخل الأراضي الرومانية.

لم يكن القوط فقط من يشكلون خطرا عل الإمبراطورية في هذه الفترة إنما قام الفرنجة والسكسون والبافريون وغيرهم بهجمات متفرقة حتى انتهت المرحلة الأولى من الهجرات الجرمانية سنة300م، لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات السلمية بين الطرفين استمرت حتى سنة 375م التي عرفت بداية مرحلة جديدة من الهجوم الجرماني امتدت لغاية 576م، وأخذت طابع الغارات العامة تمكن خلالها الجرمان من تأسيس ممالك جديدة داخل أقاليم الإمبراطورية.

الهون:

بدأت قبائل الهون الاسيوية الظهور على مسرح الأحداث أواخر القرن الرابع الميلادي حين احتلت سواحل البحر الأسود وأثارت الرعب والفوضى في المنطقة، وقد كان القوط أول القبائل التي فشلت في التصدي للهون في أوكرانيا سنة 375م، وكان ضغطهم المحرك الفعال لتدفق الجرمان داخل حدود الإمبراطورية الرومانية.

فرض الهون نفوذهم على عدد من القبائل الجرمانية، كما هددوا مدينة القسطنطينية وفرضوا على الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (408– 450م) دفع الجزية لهم.

وفي سنة 451م زحف الهون بقيادة زعيمهم أتيلا نحو الإمبراطورية الغربية، ما دفع الرومان إلى التحالف مع القوط الغربيين وتحقيقهم انتصاراً ساحقا على الهون في معركة شالون التي عُدت من أهم المعارك في العصور الوسطى.

توجه أتيلا بعد معركة شالون إلى إيطاليا لمهاجمة روما، غير أن خروج البابا ليو الأول (440– 461م) إليه أقنعه بالانصراف عنها، فعاد إلى مقر حكمه في هنغاريا (المجر) أين مات سنة 453م، ولم يتمكن أبناؤه من بعده من المحافظة على قوة الدولة بسبب النزاعات بينهم، ما جعل القبائل الجرمانية التي كانت تحت سطوتهم تنتفض عليهم لتنتهي بذلك إمبراطورية الهون.

القوط الغربيون:

استقروا في منطقة البلقان كما ذكرنا سابقا واعتنقوا المسيحية على المذهب الأريوسي، ونتيجة لضغط الهون فقد سمح لهم الإمبراطور فالنز (364– 378م) بعبور نهر الدانوب سنة 376م، غير أنهم ثاروا عليه بعد عامين وقتلوه في موقعة أدرنة، ما جعل خليفته ثيودسيوس يهادنهم ويعقد معهم الصلح، وهو ما يعني أن الإمبراطورية قد رسخت وجودهم داخل أراضيها.

بعد وصول آلاريك إلى زعامة القوط الغربيين ثار على الإمبراطورية الرومانية من جديد فنهب بلاد اليونان وتقدم باتجاه القسطنطينية، غير أن لقائد ستيلكو تمكن من هزيمته وطرده، ليعود القوط إلى إيطاليا وحاولوا غزو روما سنة 402م غير أن القائد ستيلكو تمكن مرة أخرى من هزم القوط الغربيين.

عاود آلاريك محاولته لغزو روما ثانية سنة 410م بعد مقتل ستيلكو ونجح هذه المرة في دخولها ونهبها، غير أن الموت باغته في نفس السنة، وقد فاوض القوط الرومان على الخروج من إيطاليا مقابل منحهم إقليم أكوتين بين اللوار والبرانس، حيث تمكنوا من الاستقرار فيه بعد أن طردوا منه العناصر الجرمانية التي كانت تسيطر عليه.

تمكن القوط الغربيون من توسيع أملاكهم إلى إسبانيا التي انحصر نفوذهم فيها بعد قيام مملكة الفرنجة وظلت مملكتهم قائمة إلى غاية الفتح الإسلامي سنة 711م.

الوندال:

هم من الشعوب الجرمانية الشرقية، نزلوا في القرن الأول الميلادي سيليزيا وبوهيميا، وفي نهاية القرن الرابع الميلادي فروا مع قبائل الآلان من زحف الهون فعبروا نهر الدانوب، ومع انشغال القوات الرومانية بمواجهة خطر القوط تمكنوا من عبور نهر الراين سنة 406م حتى وصلوا بلاد الغال فعاثوا فيها فساداً ثم عبروا إلى إسبانيا، غير أن ضغط القوط الغربيين

دفعهم للتوجه جنوبا ثم العبور إلى شمال إفريقية بزعامة جزريك مستغلين حالة الضعف التي كانت تشهدها.

احتل الوندال مدن شمال إفريقيا الواحدة تلو الأخرى، وسقطت قرطاجنة في أيديهم سنة 439م وقد عامل الوندال السكان بقسوة بالغة، كما اتبع ملكهم جزريك (428- 477م) سياسة دينية متطرفة حيث صادر أملاك الكنيسة الكاثوليكية محاولا فرض المذهب الآريوسي.

لم يكتف الوندال بما حصّلوه في شمال إفريقيا فراحوا يشكلون قوة بحرية مكنتهم من الإغارة على عدد من الجزر كصقلية وسردينيا وكورسيكا، وفي سنة 455م هاجموا مدينة روما واستباحوها مدة أسبوعين كاملين.

غير أن قوة الوندال تراجعت بعد وفاة ملكهم جزريك بعد أن دب الخلاف بين ورثة العرش، كما أن تعاملهم بقسوة ومبالغتهم في تحصيل الضرائب مع تطرفهم المذهبي ضد المسيحيين الكاثوليك أدى إلى عدم انسجامهم مع سكان البلاد، إضافة غلى انشغال المقاتلين بحياة الترف وتوسيع الأملاك، وهذاما مهد لسقوط دولتهم على يد القائد البيزنطي بلزاريوس سنة 534م.

البرجنديون:

من الجرمان الشرقيين، وصلوا نهر الراين في القرن الرابع الميلادي، وتحت ضغط قبائل الهون عبروه إلى أراضي الإمبراطورية كمعاهدين لها، واعتنقوا المسيحية على المذهب الآريوسي.

شق البرجنديون طريقهم إلى داخل أراضي أوروبا حتى استقروا في المنطقة التي منحها لهم القائد الروماني ايتيوس سنة 443م قرب وادي الرون الأعلى في الجهة الجنوبية الشرقية لغاليا، وقد عرفت هذه المنطقة فيما بعد باسم برجنديا.

لعل أهم تطور عرفته العلاقات البورجندية الرومانية هو مساهمتهم الواضحة في معركة شالون سنة 451 ضد الهون، والتي مكنتهم فيما بعد من التوسع السلمي في غاليا، غير مملكتهم لم تدم طويلا إذ سرعان ما تعرضت لأطماع المجاورين خاصة منهم الفرنجة الذين تمكنوا من ضمها إلى أملاكهم في بداية القرن السادس الميلادي.

تجدر الإشارة إلى أن البرجنديين كانوا من أكثر شعوب لجرمان مسالمة، حتى أنهم اختلطوا بالرومان في غاليا وصاهروهم، وقد أثارت الحضارة الرومانية إعجابهم فاستمدوا منها قوانينهم، كما أنهم لم يتعصبوا لمذهبهم الآريوسي فسمحوا لفتياتهم باعتناق الكاثوليكية وهو ما كان له الأثر الكبير على الفرنجة، ذلك أن الملك الفرنجي كلوفيس كان قد تزوج بالأميرة البورجندية كلوتيلد التي اعتنقت المذهب الكاثوليكي وتمكنت من اقناع زوجها وقومه باعتناقه.

القوط الشرقيون:

تعرض لقوط الشرقيون خلال النصف الثاني من القرن الرابع لخطر الهون غير أنهم لم يتمكنوا من الفرار عبر نهر الدانوب، وهو ما جعلهم تحت سيطرة الهون مدة سبعين سنة، وبعد وفاة أتيلا تمكن القوط الشرقيون من التحرر من سيطرة الهون فتوجهوا إلى داخل اراضي الإمبراطورية وحاولوا التوجه إلى مدينة القسطنطينية غير أنهم تعرضوا لهزيمة ساحقة على يد الجيش البيزنطي سنة 461م وتعرض فيها ثيودريك –أحد أبناء الأمراء القوطيين– للأسر، فمكث فترة بالقسطنطينية تأثر خلالها بالنظم الحضارية البيزنطية، غير أن ذلك لم ينسه أصوله القوطية حيث تمكن من الفرار إليهم سنة 474م.

تنقل ثيودريك بقومه لعدة سنوات في البلقان ثم رأى الإمبراطور زينون (474– 491م) أن يمنحه إيطاليا فشجعه على غزوها، وكان غرض الإمبراطور الروماني من ذلك هو أن يبعد القوط الشرقيين عن عاصمته من جهة وأن يدخلهم في صراع مع القائد البربري أودواكر الذي كان يحكم إيطاليا آنذاك.

تحرك القوط الشرقيون تجاه إيطاليا في خريف سنة 488م وتمكنوا في ظرف خمس سنوات من القضاء على أودواكر وإخضاع إيطاليا كلها لهم كما استولوا على صقلية، وقد اعترفت به الإمبراطورية البيزنطية حاكما على إيطاليا.

استمر مُلك ثيودريك إلى غاية سنة 526م حكم خلالها إيطاليا وفق الأساليب والنظم الرومانية، متخذا من مدينة رافنا عاصمة لحكمه، غير أن أوضاع مملكته اضطربت من بعده بسبب الصراع على السلطة، وهو ما استغله الإمبراطور جستنيان (527– 565م) حيث وجه عدة حملات عسكرية لاستعادة إيطاليا استمرت إلى غاية سنة 553م حين تمكن قائده نارسيس من احتلال العاصمة رافنا وتشتيت القوط الشرقيين.

الانجليز والسكسون:

كنا قد ذكرنا سابقا أن الإمبراطورية الرومانية قد استولت على أراضي الكلتيين في بريطانيا في القرن الأول قبل الميلاد، غير أنها انسحبت من المنطقة نهائيا سنة 442م لحماية روما وهو ما أحدث بها فراغا عسكريا مكن القبائل الانجلو–سكسونية وهي من سلالات التيوتون المقيمة بشواطئ بحر الشمال من الإغارة على الأراضي البريطانية وتأسيس سبع ممالك بها هي: كنت، اسكس، وسكس، سسكس، انجليا الشرقية، مرسيا، نورثمبرلاند.

غير أن حالة الانقام هذه لم تدم طويلا إذ عمل إثلبرت ملك "كنت" على توحيد هذه الممالك تحت رايته، وقد بذل في سبيل ذلك جهدا حثيثا من الناحيتين العسكرية والدبلوماسية، كما اتخط خطوة مهمة باعتناقه المسيحية سنة 597م على يد القديس أوغسطين الذي أرسله البابا جريجوري العظيم (590– 604م) لنشر المسيحية ببريطانيا.

في وقت لاحق تبوأت مملكة وسكس صدارة الممالك السبع في عصر ملكها اجبرت (802– 839م) وظلت محافظة على وحدتها إلى غاية تعرض البلاد لهجمات الفايكنغ نهاية القرن التاسع.

الفرنجة:

ينقسم الفرنجة إلى قسمين كبيرين هما: الفرنجة الساليون (البحريون) والفرنجة البريون (الريبوير)، استقروا في البداية قرب نهر الراين ثم دخلوا بلاد الغال وجعلوا من مدينة تور عاصمة لهم، وفي فترة حكم الملك ميروفيه –الذي تنتسب إليه الأسرة الميروفنجية– شارك الفرنجة في معركة شالون سنة 451م إلى جانب الرومان وقد تمكنوا بعد ذلك من توسيع حدودهم حتى بلغت نهر اللوار.

يعتبر كلوفيس (481– 511م) المؤسس الحقيقي لمملكة الفرنجة من خلال الانتصار على الحاكم الروماني سياغروس الذي كان يمثل آخر بقايا النفوذ الروماني بسواسون، كما أخضع شعب الأليماني لسلطته سنة 496م، وهزم آلاريك زعيم القوط الغربيين سنة 507م منهيا بذلك حكمهم في بلاد الغال.

غير أن أهم ما قام به كلوفيس هو اعتناقه المسيحية على المذهب الكاثوليكي على خلاف باقي القبائل الجرمانية، وهو ما جعله يحظى بمكانة رفيعة لدى الكنيسة بروما التي اعتبرته القوة الوحيدة التي يمكنها حماية العالم الروماني من خطر بقية الجرمان الآريوسيين.

كما نجد أن التنظيمات التي وضعها كلوفيس لدولته قد مازجت بين الأصول الجرمانية وعناصر الحضارة الرومانية، وهو ما مكنه من خلق كيان سياسي موحد اجتماعيا ودينيا.

لم تدم الوحدة السياسية للدولة الميروفنجية طويلا بعد وفاة كلوفيس إذ اعترتها حالة من الوهن والضعف بسبب النزاعات السياسية التي استمرت إلى غاية انتهاء عهد الأسرة الميروفنجية منصف القرن الثامن.

المحاضرة السادسة: نشأة البابوية وتطورها.

انتظم المسيحيون منذ ظهور هذه الديانة في كنائس يوجه كلا منها أسقف منتخب ويساعده في أداء مهامه عدد من القساوسة والشمامشة، وتدريجيا تشكل تسلسل المناصب داخل الكنيسة بشكل يحاكي التقسيمات الإدارية في الإمبراطورية الرومانية حيث صار هناك ستة بطاركة يتوزعون على أمهات المدن المسيحية وهي: القدس، أنطاكية، الإسكندرية، قرطاجة، روما، القسطنطينية.

شكل هؤلاء البطاركة الستة رأس التنظيم الكنسي ويتبع كل واحد منهم رؤساء الأساقفة الذي يشرفون على عدة أسقفيات في إقليم واحد ثم يأتي الأساقفة الذين يشرفون على شؤون الكنيسة في إقليم معين، ثم يأتي القساوسة في أدنى السلم الكهنوتي.

تطلبت محاكاة الكنيسة للنظم الإدارية الرومانية قيام شخصية عظيمة على رأسها تماثل الإمبراطور، وهنا برز فرق واضح بين الكنيستين الشرقية والغربية، حيث أن كنيسة القسطنطينية خضعت لسلطة الأباطرة هناك ولم يكن بمقدورها الاستقلال عنهم حتى أن الأباطرة البيزنطيين صاروا يحكمون بمبدأ القيصرية البابوية الذي يقضي بالجمع بين سلطة القيصر السياسية ومهام البابا الدينية. أما الكنيسة بروما فقد تحررت من سلطة الأباطرة بعد سقوط روما، وهو ما جنبها المصير الذي آلت إليه نظيرتها بالقسطنطينية.

بعد سقوط روما ازداد نفوذ الكنيسة وتضاعفت ممتلكاتها، حيث صار أساقفتها يتخذون لأنفسهم صفة الحكام الدنيويين، وأخذوا يتملكون الأراضي ويشرفون على الأعمال العامة بالمدن ويجمعون الضرائب ويعينون الموظفين وغير ذلك من الأعمال التي تدخل في صميم اختصاص الحكام.

وفي هذه الفترة برزت كنيسة روما كقوة روحية وسياسية، واتخذ أسقفها لقب البابا مدعيا أن له السلطة على جميع الكنائس المسيحية، وبرغم معارضة كنائس الشرق فإن البابوية في

روما قد تمكنت من فرض سلطانها فعليا على الغرب المسيحي بشكل عام في عهد البابا جريجوري الأول (590– 604م).

لقد تظافرت عدة عوامل أدت لبروز الزعامة البابوية ويمكن أن نلخص أهمها فيما يلي:

– أهمية مدينة روما التاريخية والحضارية، حيث أن أهمية الأسقف تأتي من أهمية مدينته وهو ما مكن اسقف روما من استغلال شهرتها الواسعة وماضيها العريق في تحقيق زعامته على أسقفيات الغرب الأوروبي.

– ارتباط مدينة روما بالقديس بطرس (أحد حواريي عيسى عليه السلام) حيث أسس بها أول كنيسة مسيحية، ذلك أن اعتقاداً ساد لدى المسيحيين مفاده أن أسقف مدينة ما يُعد خليفة لمن نشر المسيحية أول مرة بتلك المدينة، فكان أساقفة روما خلفاء للقديس بطرس الذي كان نائبا للمسيح في الأرض.

– التجاء بعض الأساقفة إلى أسقف روما من أجل استئناف بعض الأحكام الصادرة عن المجامع الإقليمية، ما جعل اسقف روما يبدوا كأنه الحكم الأكبر.

– دعم أباطرة روما لسلطة البابا، ففي سنة 455م أصدر فالنتيان الثالث مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب لبابا.

– تحمل البابوية أعباء حماية الغرب الأوروبي من الغزو الجرماني، وهو ما رسخ سلطانها ونفوذها، فمثلا حال البابا بين الهون وغزوهم لمدينة روما، كما أنقذها من احتلال اللومبارديين.

– أدى سقوط عرش الإمبراطورية الغربية سنة 476م إلى إتاحة المجال للبابا لفرض سلطته الدينية والسياسية حيث حل البابوات محل الأباطرة بروما.

– تعاقب عدد من الشخصيات القوية على كرسي البابوية ما اسهم في بروزها وتحقيق سيادتها الدينية والسياسية، ومن أمثال هؤلاء نذكر البابا داماسوس الأول (366– 384م) الذي ألف كتابا استعرض فيه مكانة أسقف روما وسيادة البابوية، كما عهد إلى أحد أساقفة بترجمة الانجيل إلى اللاتينية ليَسهُل انتشار المسيحية على أوسع نطاق. ثم جاء بعده البابا سيريكيوس (384– 399م) الذي قام باستخدام لقب البابا رسميا في الخطابات، وألف المراسم البابوية التي تمثل الطقوس المختلف التي يقوم بها البابا أثناء تسلمه كرسي البابوية، وهدفه من ذلك إحاطة البابوية بنوع من الهالة والعظمة. وهناك أيضا البابا ليو الأول (440– 461م) الذي تم في عهده الاعتراف بسيادة البابوية على كافة كنائس الغرب الأوروبي، إضافة إلى البابا جريجوري الأول (590– 604م) الذي تمكنت البابوية في عهده من فرض سلطانها فعليا على باقي الكنائس.

– لقد هيأت الممتلكات الواسعة التي امتلكتها الكنيسة بروما دخلا مهما للبابا جعله في غنى عن مساعدات الحكام، كما أن ثروتها الاقتصادية رسخت سيطرته ومكنته حتى من تجييش الجيوش للدفاع عن سلطته وممتلكاته.

المؤسسات البابوية:

01– البلاط البابوي

كان بلاط البابوية أشبه ببلاط الملوك والأباطرة، حيث أحاط البابوات أنفسهم بمظاهر الأبهة والفخامة، وينقسم هذا البلاط غلى عدة إدارات أهمها:

– الديوان البابوي: يتشكل من مجموعة إدارات ومن بين مسؤولياته الإشراف على البريد الوارد والصادر من البابا، كما كان يوجد به مختصون في إصدار المراسيم البابوية.

– المندوبون البابويون: مهمتهم عقد المجامع الدينية والفصل في القضايا الهامة التي قد تطرح في بعض الأقاليم، ولم يكن بمقدور أحد نقض قراراتهم سوى البابا.

– المحكمة البابوية: تنظر في استئناف القضايا التي حكمت فيها المحاكم الكنسية الإقليمية.

– الإدارة المالية: تختص بحساب الإيرادات والمصروفات.

02– الكنيسة:

عُرفت الكنيسة في بدايات نشأتها باعتماد حياة التقشف والزهد، غير أن الانتشار الواسع للمسيحية وتراكم الثروات والهبات المتدفقة عليها وما رافق ازدياد سطوتها الزمنية من تزايد في ممتلكاتها، أدى إلى توسيع جهازها الذي صار يتكون من **البابا** الذي يعد رأس الكنيسة وصاحب أعلى منصب فيها، ثم يليه **الكرادلة** (جمع كردينال) وهم مجموعة مختارة من كبار الأساقفة يعملون كمستشارين للبابا ويعيشون في البلاط البابوي، ثم منصب **رئيس الأساقفة** الذي يشرف على كنائس إقليم معين، ويليه **الأسقف** الذي يقيم ف الكاتدرائية (وهي الكنيسة المركزية بمدينة معينة)، ثم يليه **القس** الذي يشرف على كنيسة القرية ويعاونه **الشماس والراهب**.

03– الدير:

تعتمد حياة الديرية على الانعزال والزهد ورغم انتشارها بشكل واسع في غرب أوروبا في القرن السادس الميلادي إلا أن أصولها كانت مشرقية حيث ظهرت حياة الرهبانية لأول مرة في مصر خلال القرن الرابع قبل الميلاد، ويعتبر القديس بولس الطيبي (251– 356م) ومعاصره القديس أنطون أول مثالين لحياة الرهبنة في المسيحية.

عرفت مصر القبطية نوعين من الديرية اعتمد الأول على الديرية الانفرادية حيث ينعزل الفرد وحده متأملا ومتعبداً، أما النوع الثاني فهو الديرية الاجتماعية التي ارتبطت بالقديس باخوم (ت 348م) الذي نجح في تأسيس عشرة أديرة جماعية منها واحد للنساء.

أما عن دخول الديرية إلى إيطاليا فقد تم ذلك خلال القرن الرابع الميلادي على يد الراهب أثناسيوس إلا أن انتشارها الفعلي لم يتم فعليا سوى في القرن السادس على يد القديس بندكت (ت 543م) الذي أسس أول دير بمنطقة مونت كاسيغو سنة 529م والذي غدا نموذجا يقتدى به في غرب أوروبا.

رغم حياة البساطة التي قامت عليها الديرية إلا أنها لم تكن بمنأى عن المفاسد التي عمت الغرب الأوروبي خاصة بعد سقوط إمبراطورية شارلمان وهو ما أدى إلى بروز عدة حركات إصلاح دينية.

المحاضرة السابعة: الإسلام وعلاقته بأوروبا العصور الوسطى.

كان انتشار الإسلام عاملا مهما في تشكيل تاريخ العصر الوسطى، حيث أدى إلى تقسيم البحر المتوسط إلى ثلاث حضارات هي: البيزنطية، الأوروبية، والإسلامية. وقد ظل التفاعل بين هذه الحضارات أحد المواضيع الرئيسية في تاريخ العصور الوسطى.

وقد خاض المسلمون عدة معارك ضد الروم –البيزنطيين– تمكنوا خلالها من إنهاء وجودهم بمصر والشام، وشمال إفريقيا ثم عبروا إلى الأندلس أين قضوا على الوجود القوطي وبدأ احتكاكهم بمملكة الفرنجة.

01– مملكة الإفرنج وعلاقتها بالمسلمين:

مع فتح الأندلس عبر المسلمون جبال البرانس لتتواصل الفتوح ببلاد الغال حيث تمكن المسلمون من السيطرة على جنوب ووسط بلاد الغال حتى اقتربوا من مدينة باريس في عهد الوالي الأموي عنبسة بن سحيم الكلبي (ت 107هـ/ 726م) غير أن ظروفا داخلية بالأندلس أجبرتهم على العودة دون ترك قواعد ثابتة هناك.

وفي عهد عبد الرحمان الغافقي (ت 114هـ/ 732م) وقعت أكبر معركة بين المسلمين والفرنجة قرب مدينة بواتييه سنة 114هـ/ 732م دامت عشرة أيام كاملة وسماها المسلمون معركة بلاط الشهداء نظراً لكثرة الشهداء فيها.

لقد تمكن الفرنجة بقيادة شارل مارتل في هذه المعركة من إلحاق هزيمة قاسية بالمسلمين أدت إلى استشهاد قائدهم عبد الرحمان الغافقي وعدد كبير من جنده، كما آنها قضت على محاولة التمدد الإسلامي في عمق بلاد الغال فبالرغم من وجود حملات إسلامية حاولت بعد هذه المعركة التوغل في جنوب غالة غير أنها لم تكن بنفس قوة وتجهيز حملة الغافقي.

02- إمبراطورية شارلمان وعلاقتها بالمسلمين:

خاض شارلمان عدة حروب استهدف بها تقوية سلطانه ومد نفوذه على الغرب الأوروبي كله، وقد كانت الأندلس من بين المناطق التي حاول مد نفوذه إليها، وقد استغل في ذلك فرصة استعانة بعض الأمراء العرب الثائرين به، فنظم حملة سنة 778م وحاصر مدينة سرقسطة غير أنه لم يتمكن من دخولها فانسحب عائداً بعد أن سمع بأخبار ثورة السكسون عليه، غير أن جيشه تعرض لعدة كمائن أثناء عبوره جبال البرانس حيث هاجمته قبائل الباسك وقضت على مؤخرة الجيش وقتلت قائدها رولان الذي نسجت فيما بعد حوله أنشودة شهيرة.

وبالرغم من سيطرة جيوش شارلمان على بعض المناطق الحدودية في شمال إسبانيا مثل كتالونيا وغاسكونيا في حملات لاحقة إلا أن الوضع بقي غير قابل للحسم في معظم مناطق الحدود الإسلامية الفرنجية.

وفي مقابل حروبه مع الأندلسيين ارتبط شارلمان بعلاقات ودية مع الخلافة العباسية في المشرق زمن الخليفة الرشيد (170-193هـ/ 786- 809م) حيث تبادل الطرفان الوفود والهدايا الثمينة، غير أنه من الجدير بالذكر أن المصادر المشرقية إسلامية أو مسيحية لم تشر مطلقا لهذه العلاقة، وتنفرد المصادر اللاتينية بذلك مع تخبط في الروايات، وهو ما جعل عدداً من المؤرخين يشككون في وجود هذه العلاقات.

المحاضرة الثامنة: الصراع بين البابوية والقوى السياسية في الغرب.

عمل البابا جريجوري السابع (1073– 1085م) على تنقية الكنيسة مما شابها من مفاسد وفرض هيمنته على رجال الدين، فأصدر سنة 1075م قراراً يقضي بإلغاء التقليد العلماني والذي يقوم فيه الحكام العلمانيون بتعيين رجال الدين في وظائفهم الدينية، وهو ما شكل ضربة موجعة للإمبراطور هنري الرابع (1050– 1106م) لأن الكنيسة كانت تملك أكثر من ثلث حدود ألمانيا، وكان كبار رجال الدين أتباعا مخلصين له يعملون في مختلف هيئاته الإمبراطورية، وضياع تعيينهم من يده يعني ضياع حكومته وإعلان الفوضى السياسية والاجتماعية. وكان البابا جريجوري السابع قد هدد الإمبراطور بالحرمان الكنسي إن لم يذعن للإصلاحات البابوية، الأمر الذي جعل الإمبراطور هنري الرابع يعمد إلى جمع رجال الدين الألمان في مجمع "وورمز" سنة 1076م والذي قرر بالإجماع تنحية البابا وعزله.

رد البابا على خطوة الإمبراطور بإصدار قرار الحرمان في حقه وهو ما استغله الأمراء المحليون للثورة على هنري الرابع فعمدوا إلى اقتراح عقد لقاء يكون تحت إشراف البابا يتم فيه طرد هنري الرابع واختيار إمبراطور جديد وقد تم الاتفاق على مكان اللقاء بأوجسبرج في فيفري 1077م، وهو ما أدى إلى إضعاف موقف هنري الرابع الذي لم يجد بُداً من اعتراض طريق البابا إلى ألمانيا لاسترضاء البابا وطلب العفو منه، فسار في رحلة قاسية عبر خلالها جبال الألب في مواجهة العواصف الثلجية ونزل بإيطاليا أين توجه إلى قلعة كانوسا التي كان البابا قد توقف عندها في طريقه.

ظل هنري الرابع واقفا أمام باب القلعة مدة ثلاثة أيام حافي القدمين في ثياب خشنة، إلى أن قرر البابا فتح الأبواب له كي يُقبل قدميه ويسأله الصفح، وقد عُرفت هذه الحادثة ب "إذلال كانوسا".

لم يرض الأمراء المتمردون بقرار الغفران عن هنري الرابع فرفضوه بحجة أنه هو من ذهب وأتى بالغفران، ولو أن البابا قدم إلى ألمانيا ومثل أمامه الإمبراطور كمتهم لم يكن ليغفر له، فعقدوا في مارس 1077م اجتماعا حضره مندوبان عن البابا ووافقا على قراراته، تم فيه عزل هنري الرابع وتعيين رودولف السوابي بدلا منه لتبدأ حرب أهلية تنبأ فيها جريجوري السابع بموت هنري الرابع وتولي رودولف شؤون الإمبراطورية، غير أن العكس هو الذي وقع حيث انتصر هنري الرابع على خصومه ثم توجه إلى روما لمحاصرتها والانتقام من البابا الذي لجأ إلى قلعة القديس إنجيلو الحصينة، وظل تحت حصار هنري الرابع مدة ثلاث سنوات (1082– 1085م) لم يجد فيها من وسيلة لطرد هنري الرابع سوى استدعاء حلفائه النورمان قدموا إلى روما بقيادة روبرت جويسكارد واستباحوها وسلبوا ممتلكاتها بعد أن وجدوا أن هنري الرابع قد غادر إلى ألمانيا قبل وصولهم.

وبالنسبة للبابا جريجوري السابع فقد غادره الكرادلة وصار ممقوتا من أهل روما بسبب استدعائه للنورمان، فغادر ذليلا مع الجيش النورماني ولم يلبث أن وافته المنية وكان آخر ما نطلق به تلك العبارات التي جاءت في مزامير داوود: "لقد أحببت الحق وكرهت الظلم... لذلك أموت في المنفى". أما بخصوص الصراع حول التقليد العلماني فقد استمر إلى غاية حسمه في اتفاقية ورمز سنة 1122م حينما تنازل الإمبراطور عن حقه في تعيين الأساقفة مع الاحتفاظ بميزة الاشارة إلى أسقف المستقبل بصولجانه قبل منحه الشعارات المقدسة من طرف البابا.

لم ينه اتفاق ورمز الصراع حول السلطة بين الإمبراطورية والبابوية فقد عمل الإمبراطور فريدريك بربروسا (1152– 1190م) على الدعوة لنفسه بالسيادة بدل البابا، وأرسل جيوشه للسيطرة على مقر البابوية، في حين استعان البابا ألكسندر الثالث (1159– 1181م) بالمدن الإيطالية وتم تشكيل حلف العصبة اللمباردية الذي تمكن من الانتصار على قوات الإمبراطور سنة 1176م، وبذلك فرضت البابوية سيادتها وزاد سلطانها خاصة في فترة

الحروب الصليبية التي دعت إليها البابوية، ولم يكن أمام الأباطرة سوى الإذعان لأوامر الكنيسة وتنفيذ رغباتها أو التعرض لعقوبة الحرمان.

اعتبرت البابوية في عهد البابا أنوسنت الثالث (1198– 1216م) جميع الأباطرة والملوك أتباعا لها، وأن سلطتهم مستمدة من السلطة الإلهية التي هي في عهدة رجال الدين، ويتفق معظم المؤرخين أن البابوية قد بلغت أوج قوتها في عهد هذا البابا بعد أن دانت له كل القوى السياسية في الغرب اللاتيني بالولاء.

أما في عهد البابا بونيفاس الثامن (1294– 1303م) فقد ظهرت **نظرية "السيفين"** ومفادها أن الله خلق سيفين يتزعمان العالم، احدهما سيف البابا الروحي، والثاني سيف الإمبراطور الزمني، وأن السيف الزمني يجب أن يخضع للسيف الروحي تحت سلطة الكنيسة.

غير أن أحوال الكنيسة هذه لم تدم طويلا إذ سرعان ما اصطدم البابا بونيفاس الثامن بالملك الفرنسي فيليب الرابع (1285– 1314م) حيث أصدر هذا الأخير قراراً يقضي بجباية الضرائب من رجال الدين الفرنسيين، وهو ما عارضه البابا وجعله يهدد الملك الفرنسي بالحرمان، وكان الرد الفرنسي بالدعوة إلى عقد مجمع ديني لمحاكمة البابا بتهمة الهرطقة والاستبداد، عندئذ هرّب البابا إلى مسقط رأسه بمدينة أنّاني وأصدر قرار الحرمان في حق الملك فيليب، وأرسل الخير قواته إلى إيطاليا حيث اعتقلت البابا غير أن أقرباءه تمكنوا من تخليصه من الأسر وإعادته إلى روما التي مات فيها أياما قليلة بعد ذلك.

إن اعتقال البابا وإهانته من قبل قوات الملك فيليب يعتبر سابقة في تاريخ أوروبا ويدل على بداية فقدان البابوية لهيبتها ومكانتها وترجيح كفة السلطة الزمنية على الروحية.

الأسر البابلي للبابوية (1305– 1377م):

بعد وفاة البابا بنويفاس الثامن اعتلى بندكت الحادي عشر كرسي البابوية (1303-1304م) غير أنه لم يستطع معاقبة الملك الفرنسي فيليب الرابع ولم تطل مدة بابويته حيث توفي العام الموالي لانتخابه، ليعتلي مكانه بابا فرنسي الأصل اسمه كليمنت الخامس (1305- 1313م) وقد كان لفليب الرابع دور في انتخابه.

اتخذ كليمنت الخامس من مدينة أفينيون الفرنسية مقراً جديداً للبابوية وذلك هربا من ضغوط كرادلة روما ونفوذهم، وقد تشكل مجلس الكرادلة الجديد من ثمان وعشرين كردينالا منهم خمس وعشرون فرنسيين وهو ما يوضح التأثير الفرنسي الكبير على البابوية في هذه الفترة.

ظلت البابوية في مدينة أفينيون مدة ثلاث وسبعين سنة قبل ان يعود مقرها إلى مدينة روما، وقد أطلق على هذه الفترة اسم الأسر البابلي بسبب الاعتقاد أن إقامة البابوات بافينيون كان إجباريا بسبب ضغط الملوك الفرنسيين وذلك تشبيها لها بسبي الملك البابلي نبوخذ نصر لبني إسرائيل وإجبارهم على الإقامة ببابل، وقد تمخض عن فترة الأسر البابلي هذه عدة نتائج يمكن أن نجملها في النقاط الآتية:

01- فقدان البابوية لمكانتها المعنوية وإدعائها السيادة على باقي الكنائس، لأن البابا كان يعد خليفة القديس بطرس في روما وليس في غيرها.

02- فقدان البابوية لثقة المسيحيين، حيث نظروا إليها كأداة لخدمة المصالح الفرنسية.

03- انغماس البابوات بأفينيون في الرفاهية والملذات الدنيوية وضعف حماستهم الدينية، ما قلل احترام المسيحيين لهم.

04- خسارة البابوية لكثير من الموارد التي كانت تحصل عليها سابقا في إيطاليا من أوقاف كنيسة القديس بطرس ومن إنجلترا وألمانيا.

05- انتشار ظاهرة بيع المناصب الدينية لتغطية تكاليف حياة البذخ التي صار يعيشها البابوات في أفينيون.

06- ضعف الارتباط بين البابوية وباقي الكنائس في أوروبا خاصة في انجلترا وألمانيا.

07- تضرر مدينة روما معنويا واقتصاديا من فقدان كرسي البابوية.

08- انقسام الكنيسة الغربية وحدوث ما يعرف بالانشقاق الديني الأكبر أو انشقاق الكنيسة الغربية.

الانشقاق الديني الأكبر (1378- 1418م):

حاول بعض بابوات أفينيون العودة إلى مدينة روما وكان من بينهم البابا جريجوري الحادي عشر الذي نقل بلاطه إلى روما سنة 1377م ومات فيها في العام الموالي، فاستغل اهالي روما ذلك وضغطوا على الكرادلة لانتخاب شخص إيطالي لمنصب البابوية فكان ذلك من نصيب أوربان السادس (1378- 1389م)، غير أن الكرادلة الفرنسيين وبتحريض من الملك شارل العاشر رفضوا هذا الانتخاب وانتقلوا إلى مدينة أنّاني واعلنوا فيها عن انتخاب بابا فرنسي باسم كليمنت السابع (1378- 1394م) مشترطين عليه الإقامة في أفينيون، ليبرز بذلك انشقاق ديني استمر أربعين عاما طرفاه سلسلة بابوات في روما وسلسة بابوات في أفينيون وكان من نتائج هذا الانشقاق:

01- اضطراب الأوضاع العامة بأوروبا، كون البابا هو الوحيد الذي يملك سلطة الحل والربط في الأمور الدينية.

02- انتشار الفوضى في أجهزة الكنيسة، حيث راح كل بابا يعين الأساقفة المؤيدين له ويعزل أنصار خصمه.

03- حدوث انقسام سياسي بين دول أوروبا الغربية التي انقسمت إلى معسكر بزعامة فرنسا وبابوات أفينيون، وآخر بزعامة انجلترا وبابوات روما.

04- تحول الأسقفيات الدينية إلى ألعوبة في أيدي القوى السياسية في الغرب الأوروبي.

05- انحطاط مكانة البابوية وزوال هيبتها.

من أجل إنهاء الانشقاق تم عقد **مجمع بيزا الديني** سنة 1409م الذي حضره معظم أساقفة الغرب اللاتيني وكان من قراراته:

- عزل البابوين المتنافسين.

- انتخاب حنا الثالث والعشرين (1410- 1415م) لمنصب البابوية.

غير أن هذا المجمع الديني زادت الانشقاق اتساعا عوض حل المشكلة، ذلك أن البابوين المتنافسين رفضا الاعتراف بنتائج المجمع وأبى كل منهما التنازل عن منصبه، وبذلك صارت الكنيسة اللاتينية بثلاث بابوات يدعي منهم أحقيته بالمنصب.

ومع تأزم وضع البابوية تم عقد مجمع كونستانس الذي دام أربع سنوات (1414- 1418م) وتمخض عنه عزل البابوات الثلاثة السابقين، وانتخاب بابا جديد اتخذ اسم مارتن الخامس واعتلى السدة الرسولية بكنيسة القديس بطرس بروما بين سنتي 1417- 1431م لتنتهي بذلك قضية الانشقاق الديني.

بعض المراجع للاطلاع

01- إبراهيم علي طرخان: **دولة القوط الغربيين**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958م.

02- أحمد غانم حافظ: **الإمبراطورية الرومانية من النشأة إلى الانهيار**، دار المعرفة الجامعية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2007.

03- أسد رستم: الروم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، 2018م.

04- إسماعيل نوري الربيعي: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار شموع للثقافة والنشر، د م، 2001.

05- جوزيف داهموس: **سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى**، تر محمد فتحي الشاعر، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

06- جيبون إدوارد: **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، تر محمد علي أبو درة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1999.

07- رأفت عبد الحميد: **الدولة والكنيسة**، ط3، دار قباء للطباعة، مصر، 1999م.

08- رنسيمان ستيفن: **الحضارة البيزنطية**، تر عبد العزيز توفيق جاويد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997.

09- سعيد عبد الفتاح عاشور: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، 1972.

10- سيد أحمد الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، ط2، دار النهضة العربية، مصر، 1991م.

11- السيد الباز العريني: **الحضارة والنظم في أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، 1963م.

12- الباز العريني: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار النهضة العربية، بيروت، 1968م.

13- محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1986م.

14- محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م.

15- محمود محمد الحويري: **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1995م.

16- موريس بيشوب: **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، تر علي السيد علي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2004م.

17- نظير حسان سعداوي: **تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة الوسطى**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968م.

18- نعيم فرح: **الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى**، ط2، منشورات جامعة دمشق، سوريا، 2000م.

19- نورمان كانتور: التاريخ الوسيط **قصة حضارة: البداية والنهاية**، تر قاسم عبده قاسم، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1984م.